وهو بصدد رثاء نفسه فى خراسان ، فلا يعتأ يذكر بكاء ابنته وهى تنتحب بسبب من فراقه ووداعه لها :

تَقُولُ ابنتَى لمَّا رأَتْ طُولَ رِحْلَتى .. سِفَارُكَ هَذا تَارِكى لاَ أُبَالِياَ

وإذا هو يذكر فئات من نساء قومه يجمعهن على وجه الإجمال منطق البكاء وهن (يفدين الطبيب المداويا) ، ثم يفصل فى ذكر بعض من مواقف أولئك النسوة من ذوى قرباه ، ممن يشتد إليهن انتماؤه ، ويحص منهن : أمه وابنتيه ، وخالته ، وزوجته :

فَمِنْهُنَّ أُمِّى وابْنَتَاىَ وخَالَتَى .. وباكيةٌ أُخْرَى تَهِيجُ البَّوَاكِياَ.

إلى جانب ما عرضه فى ثنايا حواره حول والديه ، وقد بلغا من الكبر عتياً ، وكيف تأثرا من جراء بعده عنهم وفراقه إياهم :

ودُرَّ كَبِيـَرَىَّ اللَّذَيْن كِلاَهمُا .. عَلىَّ شَفِيقٌ نَاصِحٌ لَوْ نَهَانِيـَا

فهو الامتداد الإنسانى للعلاقات الأسرية التى ارتبط من خلالها الصعلوك مع المرأة الأم أو الزوجة أو الخالة ، ومع الفتاة الابنة ، وهو لم يشأ فى أى من الأحوال ـ الانفلات منها ، ولا التضحية بها تحت أى من ظروفه أو ضغوط الحياة من حوله ، فلا زال الخط الإنسانى مستقيما فى سياق الصعلكة ، ولا زال ممتداً متواصلاً عبر أى من فتراتها التاريخية ، إذا ما سلمنا بامتداد الحركة بعد عصر الجاهلية (١٥) .

وتمند ظواهر التجديد ، وتتعدّد صور المغايرة فى منطق الصعلوك، بما يسهم فى تحديد طبيعة رؤيته للأنظمة القبلية وصور الحياة كما عاشها ، فلم يجد حرجا فى توقّفه صراحة عند رموز الفقر والتشرد ، وكأنه يضاهى بها رموز الغنى والثراء عند شعراء القبائل ، وكأنه يؤكد بذلك على ضرورة الغزو ومطلب الخروج ، وإذا بالمرأة هنا تتحول إلى مشجب يعلق عليه حواره والإقناع بفلسفته على طريقة عروة حين يطرح رؤيته حول تلك المفارقات الاقتصادية التى يرمى